مجلة جامعة طرطوس للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (٥) العدد (٨) ٢٠٢١
Tartous University Journal for Research and Scientific Studies –Arts and Humanities Series Vol. (5) No. (8) 2021

منهج البحث والتبويب في كتاب سيبويه

أ. د حسين حبيب وقّاف*

عبير علي وسوف**

(تاريخ الإيداع ٢٨ /٦ /٢٠٢١. قُبِل للنشر في ١٧/ ١١ /٢٠٢١)

□ ملخّص □

عرف العرب التّدوين منذ عهود، ولكنّ تدوين اللغة جاء متأخراً، وأن يأتي التدوين في مرحلة لاحقة لنضج اللّغة وقواعدها أمرٌ طبيعي. وقد جاء تدوينهم للُّغة بغية حفظ اللِّسان من اللحن، وللحفاظ عليها. فقد اتّسمت المرحلة الأولى لظهور المؤلّفات النّحوية بغياب المنهجيّة الواضحة والمحدّدة، فجاءت أبواب النحو مختلطةً بغيرها من علوم اللغة، فلم تكن الغاية آنذاك تبويب موضوعات اللغة، وإنّما صونها من الاندثار، فلذلك اختلطت العلوم اللغويّة ببعضها.

ولعلّ أبرز كتاب متكامل في علوم اللغة وصل إلينا هو (الكتاب) لسيبويه؛ إذ عرض سيبويه علوم اللغة على اختلافها، ولكنّه لم يلتزم منهجيّةٍ محددّةٍ في عرضه علوم اللغة، فكانت الغاية من علم النحو حفظ الألسن من العجمة، ولم يكن الهدف من علم النحو تبويبه وتنظيمه، علاوة على ذلك فإنّ إرهاصات التّبويب تتمثّلُ في كتاب سيبويه.

الكلمات المفتاحية: منهج، تبويب، النحو، الصّرف، البلاغة.

*أستاذ في قسم اللّغة العربيّة، اختصاص النّحو والصّرف، كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، جامعة طرطوس، طرطوس، سورية.

[٢]**طالبة دراسات عليا (ماجستير)، قسم اللّغويات (النحو والّصرف)، قسم اللّغة العربيّة، جامعة طرطوس، طرطوس، سورية.

مجلة جامعة طرطوس للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (٥) العدد (٨) ٢٠٢١
Tartous University Journal for Research and Scientific Studies –Arts and Humanities Series Vol. (5) No. (8) 2021

Research Methodology and classification in Sibawayh's Book

prof. Dr. Hussein Habib Waqqaf *
Abeer Ali Wassouf **

(Received 28/6 /2021. Accepted 17/11/2021)

□ ABSTRACT □

Blogging was active among the Arabs with the advent of Islam, and the writing of the language was at a later stage in the maturity of the language and its rules. the first stage of the emergence of grammatical works was characterized by the absence of a clear and specific methodology, so the chapters of grammar were mixed with other linguistic sciences.

Perhaps the most prominent integrated book in the sciences of language that has reached us is Sibawayh's {the book} Sibawayh presented the various sciences of language, but he did' not adopt a specific methodology to present language science

Moreover, the harbingers of tabulation appeared in Sibawayh's book, which revealed to those who came after him a certain characteristic in the grammar tabulation**.**

*Professor in the Department of Arabic Language, specialization in grammar and morphology, Faculty of Arts and Humanities, Tartous University, Tartous, Syria.
** Postgraduate student (Master), Department of Arabic Language, Department of Linguistics (Grammar and Morphology), University of Tartous, Tartous, Syria.

المقدمة:

شغلت قضيّة نشأة النّحو ووصوله إلينا بالصّورة التي هو عليها بال الكثير من الباحثين، كيف بدأ، وتبلور، وبُوّبَ، والمرجع الذي يمكننا الاستناد إليه في الدراسة هو كتاب سيبويه؛ باعتباره أقدم وثيقة لغويّة مدوّنة جامعة لعلوم اللّغة. ولكن هذا لا يعني عدم اكتمال النحو على صورته المعروفة قبل سيبويه، فقد بدأ النحو كما هو معروف في المحاورة التي جرت بين الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وبين أبي الأسود الدّؤلي، وكانت نشأة هذا العلم في البصرة، التي كان في أهلها رغبة في اتّقاء اللحن المتفشّي و في تقويم لسانهم من رطانة العُجمة، وبعدها ازداد التأليف والتّصنيف في ميدان النّحو شيئاً فشيئاً، فالنحو شأنه شأن أيّ علم مرّ بمراحل طبقاً لنواميس النّشوء إلى أن وصل إلى صورته النّاضجة، فانكبّ علماء البصرة على هذا العلم وتعهّدوه بالرّعاية قرابة قرن من الزّمن؛ ويمكن تقسيم الأطوار التي مرّ بها النّحو إلى أربعة أطوار: طور الوضع والتّكوين (بصري)، طور النشوء والنّمو (بصري، كوفي)، طور النّضج والكمال (بصري كوفي)، طور التّرجيح والبسط في التّصنيف (بغدادي و أندلسي ومصري و شامي) .[1]وتتابعت التأليفات بعدهما في هذا الميدان، حتى وصوله إلى صورته المكتملة، ولأن الاهتمام في البدء كان مُنصبّا على حفظ الألسن من اللّحن فلم يكن هناك اهتمام بالتّبويب والتّصنيف .

أهميّة البحث:

تنبع أهمية هذا البحث من كونه تفرّد بدراسة منهج البحث والتبويب في كتاب سيبويه؛ فرغم شهرة سيبويه وكتابه إلّا أنّه لم يُدرس منهجه في عرضه لعلوم اللّغة دراسةً مستقلّةً، بل كان التّركيز على دراسة علوم اللّغة التي تضمّنها الكتاب، وإن دُرِسَ منهجه فقد جاء ذلك ضمن الحديث عن سيبويه وحياته، أو في أثناء عرض نشأة النّحو وأبرز النّحاة، فقد تفرّد هذا بعرض منهج البحث والتبويب في كتاب سيبويه ممّا منحه الأهميّة والقيمة العلميّة.

هدف البحث:

إنَّ الدّقة في تحديد الأهداف في الأبحاث العلميّة يضمن الوصول إلى النّتائج المرجوّة منها، وانطلاقاً من ذلك تركّزت أهداف البحث في تحديد إرهاصات التبويب في كتاب سيبويه، وتحديد الطريقة أو المنهج الذي اتّبعه سيبويه في عرضه لعلوم اللغة، وتبويبه لها، كما يسعى البحث لتقصّي أسلوب سيبويه في تبويبه للقواعد النحوية، والصّرفية، ولسائر علوم اللغة التي جاءت متناثرة في بعض الأحيان في ثنايا الكتاب.

الدراسات السّابقة حول هذا الموضوع:

تزخر الكتب التي تُعنى بالتّأليف النحوي بالحديث عن سيبويه وكتابه، أمّا أن يُفرَدَ بالبحث في طريقة عرضه للعلوم اللّغوية التي تضمّنها كتابُهُ، وإلقاء الضّوء على منهجيّته، وطريقة تبويبه، فأمرٌ قلّما حصل، وثمّة بعض الدّراسات التي تحدّثت عن سيبويه وعن كتابه، إلّا أنّنا لم نعثر على دراسة حفلت بالحديث عن طريقة التبويب بشموليّة وعمق، وإنّما عموم الأبحاث كانت تختصّ بدراسة جانب ما، مع وجود إشارات كثيرة لموضوع بحثنا:

١. سيبويه إمام النّحاة، علي النّجدي ناصف، الناشر عالم الكتب، القاهرة، المطبعة العثمانية بالدراسة، (د.ت).

[1] ينظر نشأة النّحو وتاريخ أشهر النّحاة، (د. ت)،الشّيخ محمد الطنطاوي، ط٢، دار المعارف، القاهرة، ص٣٤ ــ ٤١ .

٢. نشأة النّحو وتاريخ أشهر النّحاة: الشّيخ محمد الطنطاوي، ط٢، دار المعارف، القاهرة، (د.ت).

أمّا **المنهج** المتّبع في البحث، فهو المنهج الوصفيّ؛ إذ عمدت إلى قراءة كتاب سيبويه، وملاحظة ورود المسائل النّحويّة، والصّرفيّة، ومقارنة ذلك مع أقوال الباحثين السّابقين، وتحليلها، للوصول إلى الرّأي الأكثر منطقيّة منها، والإشارة إلى وجود اختلاف في الآراء، ودحض بعض الآراء التي رأيتها بعيدة عن المنطق.

أوّلاً: مفهوم الباب وإرهاصات التّبويب:

١ـ مفهوم الباب:

أ . الباب لغةً:

يعرّف الكفوي الباب فيقول: "الباب في الأصل مدخل، ثم سُمّي بها ما يتوصل إلى الشيء. وفي العرف: طائفة من الألفاظ الدّالة على مسائل من جنس واحد. وقد يُسمّى به ما دلّ على مسائل من صنف واحدٍ "[١]وفي تاج العروس يعرفه الزبيدي، فيقول: والباب: بمعنى "المدخل والطّاق الذي يُدخَل منه ... وأبواب مبوّبة أصناف مصنفة ... ونحوه الغاية، وحكى سيبويه بَيَّنْتُ له حسابه باباً باباً وبابات الكتاب سطوره "[٢]

مما سبق نجد أن تعريف الكفوي للباب هو الأقرب إلى مقصدنا، فكما ذكر أنّ الباب كان يدلُّ في الأصل على مدخل البيت، وهو المعنى الشائع بين العامة، ثمّ انتقلت دلالته لتدلّ على معنى أوسع وأشمل ليدلّ على كلّ ما يكون مؤدياً لشيءٍ آخرَ. [٣]أمّا في المعاجم الحديثة فجاء في المعجم الوسيط: "بابَ له بوباً: صار له بوّاباً. بوّب الباب: عمله، بوّب الكتاب جعله أبواباً... الباب مدخل البيت وما يُسدّ به المدخل من خشب ونحوه، الباب من الكتاب القِسم يجمعُ مسائلَ من جنس واحد. ويُقال هذا من باب كذا: من قبيله. وجمعه أبواب وبيبان"[٤]ونجد التعريف الأكثر دقة في المنجد، جاء فيه "بوّب الكتاب قسّمه إلى أبواب، والباب من الكتاب مبدأ فصوله "[٥] فالباب ـ هنا ـ يدلُّ على الجزء، أو القسم، أو الفصل. فيمكننا الوقوف على الدلالة المرادة للفظة التّبويب، ألا وهي تقسيم الكتاب إلى أبواب أو فصول بحسب ما تقتضيه طبيعة الموضوع المطروح.

ب–اصطلاحاً:

للوقوف على المعنى الاصطلاحي للفظة (باب) نستعرض ما جاء لدى القدماء وفق مفاهيمهم فنجد سيبويه يقول "هذا باب ما يكون استثناء بإلا"[٦] وسيبويه يستخدم لفظة (باب) ليدل بها على مجموعة القواعد الجزئية المتّصلة بالفكرة الرئيسة وهي موضوع الاستثناء، ويقتضي ذلك بالضرورة ملاحظة المجموعة المسماة بالباب "إن كانت شبيهة بالصنف أو الجنس، فهي في الحقيقة المجموعة بالمعنى الرياضي، والدليل على ذلك هو

---

[١] الكليات، (١٤١٩هـ ، ١٩٩٨م)،قابله على نسخة خطيّة و أعدّه للطّبع ووضع فهارسه د. عدنان درويش . محمد المصري ، ط ٢ ، مؤسّسة الرّسالة ، بيروت ، لبنان ، مادة (ب و ب).

[٢] تاج العروس، (١٣٠٦هـ)،ط١، المطبعة الخيريّة، مصر، مادة (ب و ب).

[٣] ينظر الباب النحوي بحثٌ في المنهج، (٢٠١٣ . ٢٠١٤ م) رسالة ماجستير إعداد ليلى عبد الشّكور، إشراف د. صلاح الدّين ملاوي، جامعة محمد خيضر، بسكرة،، ص ٦ .

[٤] المعجم الوسيط، (١٩٩٣ م) ، مجمع اللّغة العربيّة في القاهرة، ط ٣، مادة (ب و ب).

[٥] المنجد في اللغة والأعلام، (٢٠٠٣ م) لويس معلوف، ط٤٠، بيروت، دار المشرق، مادة (ب و ب) .

[٦]االكتاب، (١٤٠٨ هـ ـ ١٩٩٨م) ، سيبويه، تح عبد السّلام محمد هارون، ط ٣، مكتبة الخانجي القاهرة، ٢ /٣١٠.

وجود الباب وحصوله كنتيجة للقسمة التركيبة "[١]فالمعنى المتأتي من مجموع هذه الأقوال المُساقة هو الدليل على استخدام لفظة (باب) كمعنى اصطلاحي لمجموع العناصر المشتركة في أمرٍ معيّن، ويقوم أساساً على عناصر تشترك في الوظيفة سواء أكانت المشاركة تنطوي تحت الجنس أم التركيب . كقولنا هذا باب المفعولات، هذا باب النواسخ، الجمل التي لها محل إعرابي.

فالباب النحوي "مصطلح رياضيّ يعني وجود علاقة مشتركة بين عدّة عناصر تصبح فيها العلاقة جامعة."[٢]وقد تباينت الآراء في المعنى الاصطلاحي للفظة (باب)، والذي نذهب إليه ينصبُّ فيما جاء في تعريف الكفوي من أنَّ الباب في الأصل يدل على مدخل البيت، وكأنما القدماء استعاروا لفظة باب بمعناها المادي المعروف (مدخل البيت) واستعملوها لتكون دالةً على قضايا نحوية مشتركة، لتكون عَلماً على مجموع العناصر التي تنتظم تحت عنوانٍ واحدٍ، وكأن الباب "حيّز عام أو قاعدة كلية، تندرج تحتها مسائل مختلفة ومتنوعة، يربط بينها جميعاً خيط منهجي، يصلها بتلك القاعدة."[٣] ومما تجدر الإشارة إليه أننا لم نجد في مؤلفات النحاة الأوائل سوى إرهاصات وإشارات لمسألة التبويب، وإنما هم قاموا بالتبويب بناءً على منهج الفِطرة النحوية التي نجدها عند سيبويه. فهو إنما استخدم التبويب معنىً عاماً تنطوي تحته مسمّيات وعنوانات فرعيّة تتّصل بالمعنى العامّ بشكل أو بآخر. والذي نجده عنده أنه اصطلح لفظة باب للدلالة على مسألة ترتبط بها جزئيات أُخرى تمتُّ بصلة وثيقة لعنوان الباب.

ج ـ إرهاصات التبويب:

إذا أردنا الوقوف على البداية الأولى للتّبويب النّحوي فإننا نجد كتاب سيبويه، الكتاب النّحوي الأوّل المطبوع الذي وصل إلينا خير مثال على ذلك، فالنّحو في عهده كان في طور النّشأة، وفي مرحلة التّقعيد، وكانت الغاية هي جمع علوم اللغة وتدوينها، لذلك نجد بأنّ علوم اللغة ومسائلها قد امتزجت بعضها ببعض "فكان من الطبيعي أن يأتي البحث النحوي متأخراً عن جمع المادة اللغوية، لأنه لا يمكن الإلمام به دون أن توضع هذه المادة تحت تصرف النحوي"[٤] ففي البدء كانت الغاية جمع اللغة ثمّ أصبح الاتّجاه ينحازُ إلى محاولة تصنيفها، واستنباط قواعدها، بغية اكتشاف القوانين التي تحكمها وتحميها من اللحن. وكتاب سيبويه ليس عبارة عن تسجيل لقواعد العربية فحسب، وإنما على العكس من ذلك فقد حوى هذا الكتاب علوم العربية على اختلافها، وكان سيبويه ـ في ذلك ـ يقف أمام العبارات وقفة متأمّلةً متأنيةً وينظر إلى المسألة نظرة فاحصة، يستنبط خواصها ومعانيها، معلّقا وشارحاً وموضّحاً لكل ما يتعلق بالمسالة المطروقة. [٥]

ومما لا شك فيه أن تبويب النحو قد تطور بعد سيبويه، ودخل مرحلة التبويب الأدق والأقوم، والتنظيم الأحسن، تأثراً بالعلوم الأخرى.

ثانياً: التّعريف بسيبويه وبكتابه:

يقترن الحديث عن علميّ النّحو والصّرف بالحديث عن سيبويه، وعن نشأته وحياته، وعن كتابه الذي عُرِفَ به، وكان علماً له فما إن يذكر الكتاب إلّا ويذكر سيبويه. وسيبويه لم يكن اسماً له، بل لقبٌ أُطلِقَ عليه ومعناه رائحة التفاح،

---

[١] الباب النحوي، ص ٨ .

[٢] المرجع السّابق، ص ٨ .

[٣] المرجع السّابق، ص ١٠ .

[٤] الباب النحوي، ص ١٢ .

[٥] ينظر الباب النّحوي، ص ١٣ .

وهو أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، وهو فارسي الأصل، وُلِدَ في البيضاء من أعمال شيراز، ولم يذكر الرواة شيئاً عن تاريخ ولادته، وتوفي ـ على الأرجح ـ مائة وثمانين للهجرة ت / ١٨٠هـ/ .[١]

تلقى سيبويه علوم اللغة في البصرة، وتعلّم على الخليل بن أحمد الفراهيدي، يونس بن حبيب، و أبي الخطاب الأخفش، وعيسى بن عمر. وبرع في النحو حتى فاق أترابه، فاحتفى به علماء البصرة التي صار إمامها. [٢]

كان سيبويه عالماً بعلوم العربية، وقد ألّفَ كتاباً وأغلب الظن أنه لم يضع له تسميته المعروفة اليوم (الكتاب)، و ذهب بعضهم إلى أنّ سيبويه إنّما أرجأ تسمية كتابه حتّى يفرغَ منه، ويبلغ غاية ما يريد، وما يؤيد ذلك أنّه لم يقرأه على أحدٍ ولم يقرأه عليه أحدٌ، و أنّ يونس وهو من شيوخه لم يعلم نبأ الكتاب إلّا عَرضاً وبعد وفاته[٣] وهذا يعني أنّ سيبويه لم يجعل كتابه في أجزاء على ما نراها اليوم "لأنّه يبعد أن يجتمع مثل هذا السفر الضخم في مجلد واحد، وفي مثل عصره خاصة "[٤] فقد جرت العادة عند المتقدمين من النّحاة تقدير حجم المادة العلمية بالمجلّدات، فالمجلّد عندهم كان عشر وريقات . ولم يذكر شيء عن عدد مجلّداته ثمّ إنّ الكتاب ليس له مقدّمة ولا خاتمة. [٥] فالكتاب يبدأ بـِ "هذا باب علم ما الكلم من العربية ... "[٦] وينتهي آخره بـِ "ومثل هذا قول بعضهم [عَلْماءِ بَنُو فُلانٍ]، فحذف اللام، يريد على الماء بنو فلان، وهي عربية"[٧]

وقد حقق الكتاب وشرحه عبد السلام محمد هارون، وجعله في أربعة أجزاء تتضمن المادة العلمية، وجعل جزءاً خامساً للفهارس [٨]، وكتاب سيبويه كما وصل إلينا جامع لأصول النحو و فروعه، وقد جمع فيه ما تفرق من أقوال وآراء من تقدمه من العلماء كأبي الخطاب الأخفش والخليل، وأكثر من نقل عنهم هو الخليل الذي كان لا يمل لقاءه، فكان كتاب سيبويه سجلّا لآراء الخليل في النحو وكثر نقله عن يونس حتى أنه نقل عنه أبواباً برمّتها، كما أنه لم يكن يروي إلا ما قد سمعه، والذي يؤيد ما نذهب إليه الكتاب نفسه بما يحتويه من أمثلة مشفوعة بذكر لمن نقل عنهم أو سمع منهم، أو من سألهم .

ونَقْلُ سيبويه لمن اِعتُدَّ به، وذكره لمن أخذ عنهم سواء أكان من شيوخه أم من الأعراب، إنما أعطى الكتاب المصداقية المرجوة منه. ويمثل كتاب سيبويه "خلاصة الفكر النحوي للرّعيل الأول من النحاة العرب، فهو علم الخليل الذي تلقّاه من شيوخه و أصارَه إلى تلميذه سيبويه "[٩]، وسيبويه لم يظهره إلى العلن وإنما بعد وفاته، اطلع عليه الجرمي والمازني بعد موافقة من أبي الحسن الأخفش، فأخذا الكتاب عنه وكانا السبب في إظهار الكتاب إلى العلن، وهكذا أخذه السلف عن الخلف إلى أن وصل إلينا بشكله المطبوع والمحقق.[١٠]

---

[١] ينظر سيبويه إمام النّحاة، (د . ت)، علي النّجدي ناصف، الناشر عالم الكتب، القاهرة المطبعة العثمانية بالدراسة ص ٧٢ ـ ٩٠ .

[٢] ينظر نشأة النّحو وتاريخ أشهر النّحاة، ص ٨٠ .

[٣] سيبويه إمام النّحاة، ص ١٢٨ .

[٤] المرجع السّابق، ص ١٢٩ .

[٥] ينظر سيبويه إمام النحاة، ص ١٢٩ .

[٦] الكتاب، ١ / ١٢ .

[٧] المصدر السابق، ٤ / ٤٨٥ .

[٨] ينظر المصدر السابق، ٥ /٦ .

[٩] التأليف النحوي بين التّعليم والتّفسير، (٢٠٠٧ م)، د. وضحة عبد الكريم جمعة الميعان، ط١، مكتبة دار العروبة، الكويت، ص ١٦٢ .

[١٠] ينظر سيبويه إمام النحاة، ص ١٣٣ .

وقد عرفته المطبعة المصرية وغير المصرية منذ عهد طويل، فطُبِعَ في باريس بين عام واحد وثمانين وثمانمائة وألف وتسعة وثمانين وثمانمائة و ألف (١٨٨١ ـ ١٨٨٩) م، كما طبع في المطبعة الكبرى الأميرية بين عامي سبعة عشر وثلاثمئة وألف وثمانية عشر وثلاثمئة و ألف (١٧١٣ ـ ١٧١٨) م [١].

وقد وضع سيبويه كتابه في القرن الثاني للهجرة، وهو ـ كما أسلفنا ـ كتاب جامع لأصول النحو وفروعه ولأساليب العربية، وكلام العرب الغريب والشاذ، وكتاب سيبويه أول كتاب وصل إلينا بصورة تكاد تكون متكاملة، وهو لا يعرض فيه لعلم النحو فقط، وإنما هو دائرة معارف للغة العربية، ففيه أبحاث في النحو والصرف، وفيه أبحاث في الصوتيات ومخارج الحروف، كما أفرد حديثا لعلوم البلاغة، وتحدّث في لهجات العرب و درجاتها من الفصاحة و القوة، ومَن يستشهد بشعرهم ومن لا يستشهد، والفصيح والقبيح [٢]حتى قيل عنه : "إذا تأملت الأمثلة من كتاب سيبويه تبينت أنه أعلم الناس باللغة"[٣] باللغة"[٣] وقد ضمَّ إلى أقوال العلماء الذين أخذ عنهم ما استخرجه بنفسه من القواعد اعتماداً على سماعه من العرب، قال "سمعنا العرب الفصحاء يقولون انطلقت الصيف "[٤] وقد تفرد سيبويه في تبويب كتابه وتنسيق مباحثه على نحوٍ لا نجده في مؤلفات الآخرين، فقد بنى كتابه على نظام الأبواب، وفي كل باب يعرض لنا أقوال العرب التي تمثّل أمثلة استخدام اللغة العربية لدى فصحائهم.[٥]

إنَّ أبواب سيبويه كانت عنوانات لمسائل نحوية أو صرفية أو بلاغية وما إلى ذلك من علوم اللغة، فأطلق لفظة الباب لعرض مسائل اللغة، و ربما استعار هذا اللفظ من مدخل البيت وأطلقه على بداية عرضه للقضية اللغوية، وكل ذلك تماشيا مع طبيعة العصر وطبيعة العلوم التي كانت لاتزال في طور النشأة، ولم يكن العرب قد تأثروا بعد بالمنطق الأرسطي أو بالحدود والتعريفات لينعكس ذلك على مؤلفاتهم، التي جاءت حاملة صبغة الفترة الزمنية التي عاشوا بها .

ثالثاً: منهج البحث في كتاب سيبويه:

إنّ سيبويه لا يقرر في الكتاب أيّة قواعد، ولا يشترط للأحكام شروطاً، ونجد في الكتاب فيضاً غزيراً من الأساليب والمفردات، وسيبويه في كل ذلك يعرض ويحلل ليحكم فيها صحة أو خطأ، حسناً أو قبحاً، كثرة أو قلة [٦]، وفي كثير من الأحيان يعرض سيبويه صنوفاً من سماعه، وكثيراً من آراء شيوخه، ولا سيما الخليل، فينتقدها، أو يعلّق عليها، أو يجعل منها تأييداً للمسألة التي يدرسها، وكذلك يزجي كثيراً من لغات العَرب، وفيضاً من الشّواهد المتنوعة، بعضها آيات من القرآن الكريم، وبعضها الآخر من الشعر ومن الرجز ، ولا يفوته أن يصحّح نسبة الشّواهد التي يرى أنها منسوبة إلى غير أصحابها. [٧]

ويغلب على عبارات الكتاب التلاحم والانسياب، حتّى ليقلّ أن تمرَّ فيها بمقطع لا يحسن الوقوف عليه إلا حين يصرف القول عن وجهه إلى شاهد يرويه، أو سؤال يسأله أو حوار يديره، وهي واضحة بيّنة حيناً، وغامضة مبهمة حيناً

[١] ينظر المرجع السّابق، ص ١٣٣.
[٢] ينظر التأليف النحوي، ص ١٥٧ / ١٥٨ .
[٣] المرجع السابق، ص ١٥٩ .
[٤] نشأة النحو، ص ١٨٢ .
[٥] ينظر التأليف النحوي، ص ١٥٨ .
[٦] ينظر، تاريخ النحو، (د . ت)، علي النّجدي ناصف، دار المعارف القاهرة، ص ١٩ .
[٧] ينظر المرجع السّابق نفسه.

آخر، ولا يلتزم الذهاب بها إلى معناها قصداً، فربما طاب له الاستطراد إلى غير ما يكون فيه من مقام كاستطراده من القول في الاشتغال إلى القول في صيغ المبالغة[١]

ولا يكتفي سيبويه بواقع النّصوص في استنباط الأحكام، ولكنّه يلجأ أحياناً إلى فرض الفروض، ثم يشرع لها إكمالاً لصور عقلية تتمثل في ذهنه، أو تداركاً لما فات النصوص أن تُلِمَ به .كذلك لا يقتصر سيبويه على مسائل النّحو والصّرف فقط، بل يزيد عليها مباحث قيّمة رآها موصولة الأسباب بهما، ونقلها العلماء من بعده إلى علوم أخرى، وهي ليست من النّحو والصّرف. فنجد أنّ السّمة العامّة للكتاب، والصِّبغة الغالبة التي تطغى على مباحث اللغة الأخرى هي مباحث علميّ النّحو والصّرف، ولكن من يقرأ الكتاب قراءة متأنية يلحظ فيه توزعاً لعلوم اللغة على اختلافها في أبواب عديدة من الكتاب، فجاء الكتاب حاملا لعلوم اللغة، التي تفرقت بين أبواب الكتاب.

لقد اتبع سيبويه منهجاً في ترتيب أبواب كتابه وُسِمَ ترتيبه لها في بعض المواقع بالاضطراب [٢]، نذكر منها، بعد أن فرغ سيبويه من حديثه عن قسمة الكلم إلى اسم وفعل وحرف يذكر باباً في الاستقامة من الكلام والإحالة. وكان المفترض حسب الترتيب المنطقي أن ينهي حديثه عن قسمة الكلم وما يتصل بذلك من أبواب نحويّة، ثم يتابع حديثه في العلوم الأخرى. ولا يقتصر الأمر على هذا، فإننا نجد تشتيتاً لموضوعات النحو وتفريقها في ثنايا الكتاب، وبين موضوعات علوم اللغة الأخرى. ومثال ذلك عرضه لموضوع الاستثناء في سبعة عشر بابا [٣]، والترخيم في أحد عشر باباً[٤]،ويذكر بعض الأبواب في غير مواقعها، بحيث لا تكون منسجمة أو متجانسة مع ما سبقها وما تلاها من أبواب على ما نجده في باب القسم، فأورده سيبويه بين باب التصغير والباب الذي تحدث فيه عن نوني التوكيد.[٥]

كما أنه تحدّث في الإدغام والقوافي والإنشاد ومخارج الحروف والضّرورة الشّعرية، وقد جاءت هذه الأبواب في أنحاء متفرقة من الكتاب، حيث تداخلت أبواب الصرف بأبواب النحو والبلاغة وعلوم اللغة الأخرى، فأدّى ذلك إلى نوع من الاضطراب في تبويب أبواب الكتاب.

وليس بين أيدينا دليل واضح على سبب الاضطراب هذا، وإنما مردُّه كما نرى هو أنّ سيبويه لم يسمح له العمر بإعادة النظر فيما كتب وترتيب أبواب ومسائل كتابه، وإنما نعزو هذا الاضطراب إلى التّأليف الأول، فهو لم يؤلّف كتابه على منوال كتاب آخر، وإنّما اعتمد في جمع مادة كتابه على: أ ـ عبارات مرويّة، وأخرى غير مروية. ب ـ مفردات عربية وأخرى أعجمية، خالصة أو معربة. ج ـ مسائل مُفترضة قِيست على نظائر لها في اللغة. د ـ شواهد من القرآن وأُخرى من الشعر والرّجز.

وأمّا عن منهج سيبويه في الاستشهاد فنجد أنّ كتابه قد ضمّ عدداً غير قليل من آيات القرآن الكريم، وأشعار العرب وأرجازها، يروي بعضها أو ينسب الوجه فيها إلى شيوخه، ويُزجي بعضها الآخر من حفظه،[٦]

إنَّ منهج سيبويه في عرضه المادة العلميّة قد اكتنفه شيء من التعقيد والصعوبة، وذلك نظراً لتشتت الموضوع الواحد في عدة مواضع من الكتاب، بما يكلّف الباحث فيه الكثير من الصّبر والأناة في تفحّص مادته،

---

[١] ينظر الكتاب، / ٥٦ .

[٢] ينظر التّأليف النّحوي بين التّعليم والتّفسير، ص ١٨٩ .

[٣] ينظر المصدر السابق، ٢ / ٣١٠ ـ ٣٤٧ .

[٤] ينظر المصدر السابق،٢/ ٢٣٩ ـ ٢٦٩ .

[٥] ينظر الكتاب ٣/٤٩٤ ـ ٥٠٤.

[٦] ينظر سيبويه إمام النحاة ،ص ١٤٦ .

وما سوى ذلك من انتقادات قد توجّه لمنهجه في الكتاب، فلا يمكن الأخذ بها على محمل الجدّ والثّقة إذا أردنا مقارنتها مع عظيم ما قدّمه، فمنهجه هو منهج الفطرة و الطّبع، فلا يكاد يُعرِّف مُعرّفاً أو مصطلحاً، أو يشترط شروطاً على نحو ما نرى في الكتب التي صُنّفت في عهد ازدهار الفلسفة واستبحار العلوم، فهو في جملة الأمر يُقدِّمُ مادة النّحو على نحوٍ شبه كاملٍ، لا يعوزها إلّا استخلاص الضّوابط وتصنيع الأصول على ما تقتضي الفلسفة المدروسة والمنطق والموضوع. وكأن سيبويه في تصنيف الكتاب كان يتّجه إلى فكرة الباب كما تتمثّل له، فيستحضرها ويضع لها المعالم، ويصنّفها. ()[١]

رابعاً: أسلوب سيبويه في تبويب النّحو:

يُعدّ علم النّحو من علوم اللغة المهمّة لما له من دور في صون اللّسان من الخطأ واللحن، وسيبويه كان واعيا ومدركاً لهذه المسألة في عصره، وعندما بدأ كتابه ـ كما سبق ذكره ـ بدأه بهذا "باب علم ما الكلم من العربية. فالكلم : اسم، وفعل، وحرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل"[٢] فسيبويه يبدأ كتابه وحديثه عن علم النحو بقوله هذا، ويُقسّم الكلام إلى (اسم) (فعل) (حرف) ، ويُقدّم لنا علامات كلّ منها، ويفصّل ويشرح في تفصيلاته، وهو في كلّ ذلك يذكر القاعدة ويُؤيّد ما يذهب إليه بمثال أو أمثلة عديدة ، وأمّا الفعل فأمثلته أُخذت من لفظ أحداث الأسماء وبُبيت لما مضى كـ ذهبَ وسمعَ، ولما يكون ولم يقع كقولك آمراً :اذهب واقتل، ومخبراً :يَقتُل ويَضرِبُ و يُقتَلُ ويُضرَبُ، وما هو كائن لم ينقطع وهو كائن إذا أخبرت ...و أما الأحداث فنحو الضرب والقتل .

ونستشفُّ من قول سيبويه : "فهذه الأمثلة التي أُخذت من لفظ أحداث الأسماء، ولها أبنية كثيرة ستُبيَّن إن شاء الله "[٣] أنَّ ترتيباً من نمط معيّن يدور في عقله، وكأنّه يرسم لنفسه خطّة ومنهجاً ليسيرَ عليه في تبويب وترتيب مسائل كتابه التي اصطلح على كل منها اسم (باب)، فقوله سَتُبَيَّن إن شاء الله هو الدليل القاطع على أنه قد رسم لنفسه طريقاً ليسير عليه ويهتدي به في أثناء تدوينه لمسائل الكتاب. ولكنّنا نجد سيبويه في الباب الذي يليه يعرض باباً آخر في مسألة أُخرى في "باب في مجاري أُواخر الكلم من العربية"[٤] ويذكر العلامات الإعرابيّة التي تلحق الأسماء والأفعال والأحرف، عارضاً في ذلك لعلامات الإعراب.

ويتابع حديثه فيما يتعلّق بعلوم النّحو، فبعدَ عرضه لأقسام الكلم، ثُمّ إفراغه لباب في الحديث عن مجاري أواخر الكلم، نجده يُتبِعُ ذلك بحديث عن المسند والمسند إليه، ليفصل بعد ذلك بين أبواب النحو بحديثٍ له عن الفروق اللغوية للفظ وعلوم البلاغة، ويفرغ حديثاً للضّرورة الشّعريّة.

فاختلطت أبواب النحو بعلوم البلاغة والشعر وهذا ما أفضى إلى نوع من الاضطراب في تنسيق المادة العلمية المجموعة، ثم صار فيما بعد أحد المآخذ التي أُخذت على سيبويه، ولكنّنا لا نجد هذا الخلط يقتصر على التّداخل الحاصل بين المسائل المتعلّقة بعلم النحو والعلوم الأخرى، وإنما بين أبواب النحو أيضاً، فبعد هذا الحديث العارض لسيبويه في أبواب البلاغة والشعر يعود إلى حديثه في أبواب النحو في "باب الفاعل الذي لم يتعدَّه فعله إلى مفعولٍ والمفعول الذي لم يتعدَّ إليه فعل فاعل ولم يتعدَّهُ فعله إلى مفعولٍ آخر"[٥] ويفرد عدّة أبواب للفعل اللازم والمتعدي إلى مفعولين وثلاثة مفاعيل

---

[١] سيبويه إمام النّحاة، ص ١٦٣، ١٦٤ .

[٢] االكتاب ١ / ١٢ .

[٣] المصدر السابق نفسه .

[٤] المصدر السابق ١٣/١ .

[٥] االكتاب، ١/ ٣٣ .

مفاعيل ، لنراه يُقحمُ بين الأبواب باباً (للحال) في "ما يعمل فيه الفعل فينتصب وهو حال وقع فيه الفعل وليس بمفعول [١] وهو في هذا الباب لا يفرد حديثاً مطوّلاً لباب الحال وتفصيلاته، كما أنه لا يسهب في الشّرح، وإنّما جاء ذكره لباب الحال في هذا الموضع عارضاً، وكأنّ الشّيء بالشّيء يذكر، فهو قد أفرد عدة أبواب للحديث عن الفعل اللازم والمتعدي، والفعل المتعدي يتعدّى إلى مفاعيل وهي تصبُّ في باب المنصوبات والحال كذلك، فربّما وجد سيبويه أنه من الأجدر به أن يشير ولو إشارة بسيطة إلى الحال على اعتبار أنه من معمولات الفعل حاله حال المفعول به الأول والثاني الذي كان الفعل سبباً في دخولهم باب المنصوبات، والأمر ذاته ينطبق على الحال. ومع تعدّد هذه الأبواب فإن الحديث عن الحال لم يكتمل، ولذا نراه يتحدّث عنها في مواضع متفرّقة من الكتاب، وهذا النّوع من التشكيل أفرز شيئاً من الصّعوبة والاضطراب بين مواد الكتاب، ويتّضح ذلك في أمرين:

أولها: توزع مسائل الباب الواحد على مواطن متفرّقة، كحديثه عن الحال في ثنايا حديثه عن التعجب.

ثانيها: الجمع بين أبواب متعدّدة في التّصنيف النّحوي، كخلطه بين بابيّ التّعجب واسم التّفضيل لعلّة الشّبه اللّفظي، مع أنّ التّعجب من باب الفعل واسم التّفضيل من باب الاسم. [٢]

فمنهج سيبويه في ترتيب الكتاب كان جارياً على نسق المسائل، وما جاء من لفظ الباب في عناوين المواد وكان يعني المسألة، وهذا يدلُّ على "عدم نضج نظرية عامّة لترتيب مادّة النّحو، كما يكشف عن العلاقات الجزئيّة بين المسائل، كأنّ النّهج أنّ الشّيء بالشّيء يذكر، وإن كانت هذه المسائل تنتمي لأبواب مختلفة، كما يكشف عن شخصيّة سيبويه الواصف الذي استنطق بعض جوانب المادة النحوية، وحلّلها ليستنبط منها أحكاماً تقتضي تبويبها على هذا النّحو. [٣]

خامساً : أسلوب سيبويه في تبويب الصّرف:

أقام كتاب سيبويه المعالم للعربيّة التي أعانت على حمايتها من الزّيف واللّحن، فهو دراسة واسعة في النّحو والصّرف، أيّ في أساليب العربيّة وبنية مفرداتها [٤] وإذا أردنا البحث في مسائل الصّرف التي وردت في الكتاب نجدها قد قدّمت لجميع المسائل الصّرفية، وسيبويه في كلّ ذلك يعرض القاعدة، يحلّل ويمثّل ويذكر الغريب والنّادر والشّاذ، ونجده في أحيان يفترض وجود لفظة على وزن معيّن، كما أنّه لم يقدّم ذكراً لقاعدةٍ دون أنْ يُمَثِّل أو يوضِّح جوانب القاعدة وكل ما يتعلّق بها ،ولكنّنا نجد أنّ أبواب الصّرف ـ كما النّحو ـ قد تناثرت في ثنايا الكتاب، وممّا سنذكره في تبويب الصّرف وثيق الصّلة وشبيه إلى حدّ كبير بما ذكرناه في تبويب النّحو ، ونضرب مثالاً لذلك ما ذكره سيبويه في (التّرخيم) فبعد أن انتهى من حديثه في باب (النّدبة) أفرغ باباً للحديث عن التّرخيم في "ما رخّمت الشّعراء في غير النّداء اضطراراً "[٥] لينتقل بعدها للحديث عن (النّفي بِـ لا)، فأدخل باباً يتعلّق بعلم الصّرف بين أبواب النّحو.

---

[١] المصدر السابق، ١/ ٤٤ .

[٢] أساليب ترتيب أبواب النّحو، ص ١٩ .

[٣] المرجع السّابق، ص ١٧ .

[٤] ينظر سيبويه إمام النّحاة، ص ١٤٢ .

[٥] الكتاب، ٢ / ٢٦٩ .

وإن أردنا التّعرف إلى سبب ذلك فإنّنا لا نكاد نجد سبباً أو مبرّراً لإقحام باب التّرخيم كبابٍ من أبواب الصّرف بين أبواب النّحو، ولا نعلم ما الصّلة على وجه الحقيقة في رأي سيبويه بين (النّدبة والتّرخيم) ليجعلها في أبواب متتالية، والذي نذهب إليه أنّ سيبويه إنّما ذكرها في أبواب متتابعة على مبدأ الشّيء بالشّيء يُذكر، ففي النّدبة تستخدم أدوات النّداء كما في التّرخيم، فربّما وجد البابين يرتبطان بصلةٍ وهي استخدام أداة النّداء في كلّ منهما، فأوردهما بشكل متعاقب، والذي يُؤيّد ما ذهبنا إليه أنّ سيبويه أورد الأبواب الآتية بشكل متعاقب (النّداء ثمّ النّدبة ثمّ الترخيم) وهي أمور تخصّ الاسم فقط، ولكنّه أعقب التّرخيم بباب آخر من أبواب النّحو (النّفي بلا) وأكمل حديثه في أبواب النّحو في الجزء الثّاني من الكتاب.

ويتابع حديثه وعرضه للمسائل والأبواب المتعلّقة بعلم النّحو عارضاً وشارحاً ومُعلّقاً وذاكراً للأمثلة والشّواهد، فيما سمع أو قيل له، أو فيما نقله عن شيوخه وأساتذته، لنجده يُدخِل أبواب الصّرف بين أبواب النّحو، فبعدَ أنْ فرغَ من الحديث عن "باب الحكاية التي لا تُغَيَّر فيها الأسماء عن حالها في الكلام "[١] نجده ينتقل إلى الحديث في "الإضافة وهو باب النّسبة "[٢] ويفرد لذلك مسائل طِوالاً و أحاديث يعرض ويحلّل ويقيس في صفحات ليست بقليلة، ويتابع حديثه في ميدان مسائل الصّرف بين التّثنية و الجمع لنجده في أثناء حديثه وتفصيله في عرض مسائل التّثنية يعرض باباً في "جمع المنقوص بالواو و النّون في الرّفع وبالنّون و الياء في الجرّ و النّصب... وذلك قولك رأيت مُصْطَفَيْنَ، وهؤلاء مُصْطَفَوْنَ [٣] ويُتبِع جمع المنقوص بباب آخر في (تثنية الممدود) فالجامع بين المقصور و الممدود الذي حدا بسيبويه ليجعلها في بابين متتابعين إنّما قد يكون هو خروجهما عن القاعدة الأساسيّة في تثنية غير المقصور وغير الممدود، وإن كان ذلك، فلِماذا لم يُتبعه سيبويه بباب التّثنية وجمع المنقوص، والأرجح ـ على ما نذهب إليه ـ أنّ سيبويه إنّما كان يتابع أبوابه ويسلسلها، فكأنّما أدرك أنّه قد أغفل فكرة معينة فأوردها في حينها.

فهو في هذه الأبواب المتعاقبة التي يتحدّث فيها عن التّثنية يُخَيَّلُ أنّه أجمل الحديث من جميع جوانبه وحيثيّاته المتعلقة بما يخصّ مسألة التّثنية المتوزّعِة على أبواب عدّة، فاستدرك موقع النّقص بذكره في باب قريب له من جهة الدّلالة والمعنى الجامع.

ويكمل سيبويه في عرضه فيما يخصّ الجمع وبعد أن انتهى من الحديث عن صيغ الجمع يعود ليطرق باب التّثنية من جديد وكأنّما أحسّ في هذا المقام أنّه قد فاته شيءٌ ما فاستدرك ذلك وأفرد باباً من جديد في (باب تثنية الأسماء المبهمة التي أواخرها معتلّة) [٤]

إنّ أبواب الصّرف التي تتعلّق بالمثنّى وجمع المؤنّث السّالم وجمع التّكسير قد تفرّقت في ثنايا كتابه، وأكثر ما وجدنا ذلك في الجزء الثّالث من الكتاب؛ فقد طرقه في باب "تكسير الواحد للجمع ... ما هو اسم واحد يقع على جميع وفيه علامات التّأنيث وواحده على بنائه ولفظه وفيه علامات التأنيث ... جمع الجمع "[٥] وفصل بينها بأبواب عديدة في النّحو والصّرف وعاد في ختام الجزء فيما يقرب الرّبع الأخير منه فأفرد الحديث في جمع التّكسير وقواعد جمع التّكسير، وعرض لاسم الجمع. ليختم الجزء الثّالث عن جمع التّكسير، صيغ منتهى الجموع، وجموع القلّة والكثرة، والأمثلة على ذلك كثيرة.

---

[١] المصدر السابق، ٣ / ٣٢٦ .

[٢] المصدر السابق، ٣/ ٣٣٥ .

[٣] المصدر السابق، ٣/٣٩٠ ـ ٣٩١ .

[٤] الكتاب ٣ / ٣٩٤، ٤٠٦، ٤٠٧، ٤١٠ .

[٥] المصدر السّابق،٣/ ٥٦٧، ٥٩٦، ٦١٨ .

ويتابع حديثه في صيغ الأفعال وبما ينطوي تحت علم الصّرف حتّى نكاد نرى الجزء الرّابع من الكتاب في موضوعات الصّرف، على أنّه لا يُصِّرح بذلك إلّا عنما يَقرُب على نصف الكتاب حين قال هذا باب "ما بنت العرب من الأسماء والصّفات والأفعال ... وهو الذي يُسميّه النحويون التّصريف والفعل"[١] ويفرد ما بقي من هذا الجزء لموضوعات الصّرف من الإمالة والوقف وحروف الزّيادة والإعلال والإبدال.

إنّنا لا ندرك على وجه الدّقة السّبب المنطقي لهذا التّشتت الذي جعله سيبويه في خلطه للأبواب بعضها ببعض، وإن كل ما يمكن أن نقوله يبقى من قبيل التّكهنات، والتي قد لا تعطي أو تصل إلى السبب، وإن جميع الأقوال تجد لها مُبرراً في خلوّه من مقدمة وخاتمة، وأنه لم يُقدّر له إعادة النظر فيه، للتصويب أو لتجميع المسائل التي تندرج تحت عنوان واحد في أبواب متقاربة.

سادساً: أسلوب سيبويه في تبويب بقيّة علوم اللغة.

لقد عرضنا آنفاً لمنهج سيبويه في تبويب مسائل النّحو والصّرف كما وردت في كتابه، وأشرنا إلى أنّ الكتاب حوى مسائل تتصل بعلوم اللغّة على اختلافها، وكأنّ الكتاب أشبه بدائرة معارف لغوّية، فقد ذكر أبواباً تتّصل بعلوم البلاغة والمعاني وقد نقلها عنه عبد القاهر الجرجاني في كتابيه (دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة)، كما نقل عنه الثّعالبي، واستفاد منه علماء العروض.

هذه هي مادة الكتاب وعناصر تكوينه التي صنع منها سيبويه النّحو والصّرف، وصنع منها مباحث أخرى رآها من النّحو، ورآها النّاس من بعده من غيره فأدخلوا بعضها في البلاغة [٢]، ففي (باب الاستقامة من الكلام والإحالة) يقسم الكلام إلى "مستقيمٍ حسنٍ، ومُحال، ومُستقيمٍ كذبٍ، ومُستقيمٍ قبيحٍ، وما هو محال كذب "[٣] ومردُّ هذا الأمر إلى تأليف وصدق العبارة، فالسّياق هو الحكم في هذا المقام، فعلى قدر استقامة العبارة في تأليفها والمعنى في صدقه يكون رجحان الكلام في ميزان النّقد وتفاضله في مراتب البلاغة، "وكلُّ اختلافٍ يُصيبُ العبارة في تأليفها أو المعنى في إخباره عن الواقع تخفّ بمقداره موازين الكلام وتنقص قيمته في معارض البيان"[٤]

فقد تضمّن كتاب سيبويه على النّحو والصّرف وما يتّصل بذلك من مسائل [٥]، فقد نقل عبد القاهر إلى أسرار البلاغة [٦] ما جاء لدى سيبويه في باب "استعمال الفعل في اللّفظ لا في المعنى لاتّساعهم في الكلام، والإيجاز والاختصار"[٧]

وفي باب اللفظ للمعاني يشير إلى ثلاث مسائل دلاليَّة هي: التخالف والتّرادف والاشتراك اللفظي، ويتحدّث عن صلة الألفاظ بمعانيها اتّفاقاً واختلافاً "اعلم أنّ من كلامهم اختلاف اللّفظين لاختلاف المعنيَين ، واختلاف اللّفظين والمعنى واحد، واتّفاق اللّفظين واختلاف المعنيين "[١]

---

[١] المصدر السابق، ٤/ ٢٤٢ .

[٢] سيبويه إمام النّحاة، ص ١٥٣، ١٥٤ .

[٣] الكتاب، ١ / ٢٥ .

[٤] سيبويه إمام النّحاة، ص ١٥٥ .

[٥] الدراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث، (١٤٠٠هـ . ١٩٨٠ م)، محمد حسين آل ياسين، ط ١، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ص ٨٢.

[٦] تاريخ النّحو، ص ٢١ .

[٧] االكتاب ١ / ٢١١ .

وفي باب الإدغام يتحدّث سيبويه حديثاً بارعاً عن حروف الهجاء وعدّتها أصولاً وفروعاً، و بين الفروع ما تحسن به قراءة القرآن والشّعر وما لا تحسن، وكأنّنا به يشير إلى التنغيم و التّجويد و مواضعه التي يَحسُن فيها، والتي لا يكون فيها من علائم الحُسنِ، ثمّ يتحدّث عن مخارجها و أنواعها من مجهور و مهموس و شديد و رخو، منحرف، مكرّر، الحروف اللينة، الحرف الهاوي، الحروف المطبقة والمنفتحة [٢] وهو في كل ذلك يُوصّف الحرف ومخرجه أدقّ توصيف، وهذا يدخل ضمن علم الأصوات، فجاءت الدّراسة الصّوتية لدى سيبويه في باب الإدغام.

ويُقدّم سيبويه ترتيباً للأصوات العربيّة ووصفاً لمخارجها، وتحديداً لصفاتها، وهذا التّقديم لم يقصده سيبويه لذاته بوصفه درساً مُستقلّاً، بل جاء مُقدّمة لفهم باب الإدغام.

ورأى أنّ أصول حروف العربيّة تسعةٌ وعشرون حرفاً : (الهمزة، والألف، والهاء، والعين، والحاء، و الغين، والخاء، والكاف، والقاف، والضّاد، والجيم، والشّين، والياء، و اللّام و الرّاء، و النّون والطّاء، والدّال، والتّاء، والصّاد، والزّاي، و السّين، والظّاء، والذّال، والثّاء، والفاء، والباء، والميم، والواو) [٣] وعرض لمخارج الحروف كما تمثّلها وفق مخارج الحروف لذلك جاءت الهمزة في ترتيبه في أوّل الحروف، فرتّبها بدءاً من أقصى الحنك إلى الأصوات التي تخرج من الخياشم، وهو مخرج النّون الخفيفة، وهو في ذلك يقف موقف الشّارح المُفسر، الذي يعرض الظاهرة مصحوبة بالأمثلة الموافقة لها . كما عرض للحروف التي يؤخذ بها، وتُستَحسن في قراءة القرآن والأشعار، وتلك التي لا يُؤخذُ بها ولا تُستَحسن لا في القرآن ولا في الشّعر، ولا كثيرة في لغة مَن تُرضى عربيّته.

ولم يغفل سيبويه الحديث عمّا يتّصل بالشّعر في باب ما يحتمل الشعر يعرض أنواعاً من ضرورات الشعر، ويسوق لها الشواهد تباعاً"اعلم أنّه يجوز في الشّعر ما لا يجوز في الكلام من صرف ما لا ينصرف، يشبهونه بما ينصرف من الأسماء، لأنها أسماء كما أنها أسماء. وحذف ما لا يحذف، يشبهونه بما قد حذف واستعمل محذوفاً"[٤]

ولم يقتصر سيبويه على التشريع للفظ باعتباره أداة خطاب وتعبير، بل شرّع له كذلك باعتباره وحدة غناء وترنيم، فتحدث في باب القوافي والإنشاء عن أحوال القافية وما يضاف إليها أو يُقتطع منها عند أهل الحجاز، وبني تميم حيث يريدون أن يترنموا وحين لا يريدون، وإنما عقد الكلام هنا على الشعر خاصة وعلى القافية منه دون غيرها، لأن التغني يكون بالشعر، والقافية مقطع الصوت، فهي بمنزلة الحرف الأخير من الكلمة. [٥]

ويعرض في باب "الإدغام في الحرفين اللذين تضع لسانك لهما موضعاً واحداً لا يزول عنه ... فأحسن ما يكون الإدغام في الحرفين المتحرّكين اللذين هما سواءٌ إذا كانا منفصلين، أن تتوالى خمسة أحرف متحركة بهما فصاعداً "[٦]

فهو ههنا إنّما يعرض لنا أحكام التّجويد على ما نعرفها عليه الآن، وإن اختلفت اللغة المُستخدمة في طريقة عرض الفكرة، فسيبويه قد عرضها بما يتناسب مع معطيات العصر المعيش، وتأثُّراً بما أفرزته الحياة آنذاك، كما يعرض للمواضع الحسنة في الإدغام "وإذا التقى الحرفان المثلان اللذان هما سواءٌ متحرّكين، وقبل الأول حرف مدٍّ، فإنّ الإدغام حَسَنٌ، لأنّ حرف المدّ بمنزلة متحرّك في الإدغام "[٧]

---

[١] المصدر السّابق، ١/ ٢٤ .

[٢] ينظر الكتاب، ٤ / ٤٣١ ـ ٤٣٦

[٣] الكتاب، ٤/ ٤٣١ . ٤٣٦ .

[٤] الكتاب، ١/ ٢٦ .

[٥] سيبويه إمام النّحاة، ص ١٥٤ .

[٦] الكتاب، ٤ / ٤٣٧.

[٧] الكتاب ٤ / ٤٣٧.

الخاتمة :

ومجمل القول: إنّ كتاب سيبويه في هيكليّته وفيما يتضمّنه، هو خلاصة وافية ألمّت بأغلب المسائل النّحوية إن لم نقل بجميعها، وقد وُضِعَت بطريقة يتجلّى فيها المنهج من خلال أسلوبه في طرق المسائل وعرضها في تلك الآونة من تاريخ الفكر اللغوي العربي.

وإننا لا نوافق من وصف منهج سيبويه في الكتاب بالمضطرب، على ما تعنيه هذه الكلمة من معانٍ، فخلوُّ الكتاب من مقدّمة وخاتمة قد يُفسَّر بأنّ عامل الزّمن قد لعب دوراً في ذلك، فالكتاب لم يُعرَف في عهده، وكأن المنيّة وافته قبل أن يتسنّى له مراجعة الكتاب والتّدقيق في فحواه، وأمّا الاضطراب المنسوب إليه بسبب ما تفرّق من المسائل في أكثر من باب، واضطراب مصطلحاته، فإن التّبرير الذي يقتضيه العقل والمنطق هو أنّ سيبويه عندما شرع في تدوين كتابه، كان يصبو إلى تقعيد مسائل اللغة العربية، فكان يعرض للأشعار وينسبها، ويستشهد على كلامه من القرآن أو الشعر، وهو في ذلك يعرض لكلام العرب الغريب و النادر والشّاذ .

فمن وضع هذا العلم بدقائقه وتفصيلاته، ومَن أحاط بعلوم اللغة هذه الإحاطة، لا يُمكننا وصف منهجه بالمضطرب، فقواعد اللغة على ما هي عليه الآن ما هي إلا نتاج جهود سيبويه الحثيثة والدّؤوبة، وحذقه في عرض المسائل وإحاطته بجوانبها.

كما أن العلوم تتطور، وتتماشى مع التّطور العقلي الذي تفرضه المتغيرات، وسيبويه آنذاك لم يكن متأثراً بالمنطق الأرسطي بعد، إذ لم يُعرَف حينها، علاوة على ذلك واجه سيبويه مشكلتين أولهما: أنّ اللغة العربيّة لم تكن بعد قد بلغت المرحلة التي يمكن أن تُعتبر فيها لغة علم فكانت العلوم العربية في طور النشأة، وثانيهما: سيبويه رجل فارسيُّ الأصل.

المصادر والمراجع :

- *القرآن الكريم.*

١. *الكتاب* ،(١٤٠٨ هـ - ١٩٩٨ م)،سيبويه، تح . عبد السّلام محمد هارون، ط ٣، مكتبة الخانجي، القاهرة.

٢. *تاج العروس*، (١٣٠٦ هـ)،الزّبيدي، ط ١، المطبعة الخيرية مصر.

٣. *تاريخ النحو*، (د . ت)، علي النّجدي ناصف، دار المعارف القاهرة.

٤. *التأليف النحوي بين التّعليم و التّفسير*، (١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م)،د. وضحة عبد الكريم جمعة الميعان،ط١، مكتبة دار العروبة، الكويت.

٥. *الدراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث*، (١٤٠٠ هـ . ١٩٨٠ م)، محمد حسين آل ياسين، ط ١، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان.

٦. *سيبويه إمام النّحاة*، (د . ت)، علي النّجدي ناصف، الناشر عالم الكتب، القاهرة، المطبعة العثمانية بالدراسة.

٧. *الكليات*، (١٤١٩هـ)، الكفوي ، قابله على نسخة خطيّة و أعدّه للطّبع ووضع فهارسه د. عدنان درويش . محمد المصري، ط ٢، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، لبنان .

٨. *لسان العرب*، (د . ت)،: ابن منظور، دار صادر، بيروت .

٩. المعجم الوسيط، (١٩٩٣م)، مجمع اللّغة العربيّة القاهرة، ط ٣ .
١٠. *المنجد في اللغة والأعلام*، (٢٠٠٣ م)، لويس معلوف،ط٤٠، بيروت، دار المشرق،
١١. *نشأة النّحو وتاريخ أشهر النّحاة*، (د . ت)، الشّيخ محمد الطنطاوي، ط٢، دار المعارف، القاهرة .

الرّسائل الجامعيّة :

١. *أساليب ترتيب أبوب النحو* (٢٠٠٤ م)، رسالة ماجستير إعداد مرلين عدنان الغُنمين، إشراف د. حسن الملخ، جامعة آل البيت .
٢. *الباب النحوي بحثٌ في المنهج*، (٢٠١٣ . ٢٠١٤ م)، رسالة ماجستير إعداد ليلى عبد الشّكور إشراف د. صلاح الدّين ملاوي، جامعة محمد خيضر، بسكرة.